

التكرار في عينية أبي ذؤيب الهذلي

أ/دهينة ابتسام

الملخص:

لقيت ظاهرة التكرار اهتماما كبيرا من البلاغيين والنحويين إلا أن دراساتهم كانت منصبّة على ماهيّة التكرار وأنواعه وأغراضه البلاغية وذكر شواهد ، فهي نظرة جمالية صرفة تفتقر إلى إبراز الوظيفة التي تؤديها الصيغ المتكررة.

يشكل التكرار ظاهرة مهمة في الشعر الجاهلي تستحق الدرس و التحليل ؛لذا سنحاول في هذه الدراسة الوقوف على بعض أنماط التكرار داخل القصيدة الجاهلية،من خلال استنطاق تلك الطاقة التعبيرية الكامنة في عينية أبي ذؤيب الهذلي ،محاولين رصد مميزاتها الصوتية وخصائصها الإيقاعية.

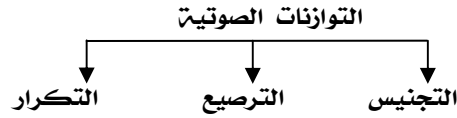
Résumé:

Le phénomène de répétition est bien pris en charge par les rhétoriciens et les grammatologues seulement leurs études a été consacrée sur sa notion et ses types, c'était une vision complètement esthétique, sans faire jaillir la fonction des locutions répétées .

La répétition constitue un important phénomène dans le poème jahilite, pour cela on essaye dans cet article de mettre en évidence quelques types de répétition en agissant sur l'énergie expressive et les caractéristiques phonitiques et rythmiques chez abou dhou'aib al houdhali.

يعد الشعر العربي القديم ميدانا خصبا لدراسة التأثيرات الصوتية ؛لغنى روافده الصوتية ، وطاقاته الهائلة على التعبير ، مثل الأصوات وتوافقها ونغم الكلام وإيقاعها والتكرار وجرسه . هذه الإمكانيات جديرة بالوصف والإحصاء ، تحت إمرة ظلال المعاني ودلالات الكلمات ؛لأن التأثيرات الصوتية " لا تظهر إلا إذا ساعدتها العوامل الدلالية، فإذا لم تسعفها ، بقيت في الظل وتخلت عن دورها " ¹ وهذا ما نرغب في استبيانّه من خلال استنطاقنا لتلك الطاقة التعبيرية الكامنة في عينية أبي ذؤيب الهذلي ،محاولين رصد مميزاتها الصوتية وخصائصها الإيقاعية، وذلك بنسج حوار معمق أساسه التفكيك والتشظي؛ لأن القصيدة الجاهلية كما يصف وهب روميّة "مدينة الأسرار ، لا تبوح بأسرارها ، إلا بعد مدارس طويلة وشقاء بالغ " ² إذ بالمعاشة تفضي القصيدة بمكنوناتها التعبيرية.

وقد وجدت المكونات التعبيرية صدى كبيرا في الدراسات الأسلوبية، حيث "تشمل مساحة كبيرة من السمات اللغوية التي تشترك في شيء واحد، وهو أنها لا تمس معنى القول - أي المعلومات التي يؤديها مباشرة - فكل ما يتجاوز الجانب الاشاري أو الاعلامي من اللغة فهو داخل في دائرة التعبيرية"³. وهذا يعني أن كل ما تعلق بمصافحة الوجدان، وتحريك جانب الإيقاع وتثبيتته بصورة جمالية إنما يدخل في دائرة التعبيرية والتوازنات الصوتية، وجزء ذلك أضحت عنصرا مقوما يتعلق بالإيقاع الداخلي أو الخاص للقصيدة، وهذا العنصر يتفرع بدوره إلى مقومات أخرى تتمثل في: التجنيس والترصيع والتكرار.



لقيت ظاهرة التكرار اهتماما كبيرا من البلاغيين و النحويين إلا أن دراساتهم كانت منصبّة على ماهية التكرار وأنواعه وأغراضه البلاغية و ذكر شواهد ، فهي نظرة جمالية صرفة تفتقر إلى إبراز الوظيفة التي تفيدها الصيغ المتكررة .

فالتكرار يشكل ظاهرة مهمة في الشعر الجاهلي تستحق الدرس و التحليل سيحاول هذه الدراسة الوقوف على بعض أنماط التكرار داخل القصيدة .⁴ وقبل الخوض في غمار هذا المكون الأسلوبي، لا ضير من استعراض المعنى اللغوي له، حيث ورد ضمن مادة (كرر)، في لسان العرب مايلى: "الكر الرجوع (...) والكر مصدر كر عليه يكر كرا، وكررا، وتكرار، عطف، وكرار الشيء، وكركره أعاده مرة بعد أخرى ، وكررت عليه الحديث (...) رددته عليه، والكر الرجوع على الشيء ، ومنه التكرار (...) والكركرة صوت يردده الإنسان في جوفه (...) والمكرر من الحروف: الراء وذلك لأنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتغير بما فيه ...⁵ فكان من معانيه الرجوع، أو الترجيع ، والبعث والإحياء بعد الفناء.

أما في اصطلاح البلاغيين فقد عرفه ابن رشيق بأنه تكرار كلمة بالمعنى واللفظ، ويكون في الألفاظ أكثر من المعاني، بغيّة التشوق والاستعذاب، أو التنويه أو التهويل⁶ من ذكر المكرر .

فقد عانى الإنسان الجاهلي من هاجس الضياع والتشتت، لذا نراه دائم الاسترجاع والتذكر، يسعى إلى التجديد وبعث الحياة بعد الدمار والاندثار، والبنية الشعرية بذلك "ذات طبيعة تكرارية حين تنتظم في نسق لغوي"⁷؛ لتبني معمارا شعريا مثقلا بالقيم الروحية والدلالات النفسية المخبوءة تحت الكلمات. إنه "يسلط

الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة، تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه⁸. فالتكرار- من هذا المنطلق- يشكل ظاهرة مهمة تسترعي الوقوف عندها ودراستها وتحليلها بمختلف أنماطها، سواء كانت هذه الأنماط تكراراً للحرف أو للكلمة، أو للعبارة، ولتكن أول عتبة نطوؤها تكرار الحرف.

1- تكرار الحروف :

إذا كان النص الشعري بنية كلية، فإن من مقومات هذه البنية وحدة لغوية فاعلة في النص، تتمثل في وحدة الصوت أو الحرف، فهو يقف في مقدمة المقومات اللغوية الأخرى المتمثلة في الكلمة والجملة كونه "أصغر الوحدات اللغوية في النص الأدبي، فضلاً عن أنه يعد المادة الخام للكلام الإنساني من ناحية، ولتراكيب النص اللغوية والسياقية والدلالية من ناحية ثانية"⁹.

فالصوت هو المنطلق والمفتاح الأول الذي ندلف من خلاله عالم الكلمة ثم عالم النص الشعري ومما لا شك فيه أن تناول خصائص حروف عينية أبي ذؤيب من حيث شدتها و رخاوتها و جهرها وهمسها يستدعي منا الوقوف عند بعض التقنيات الصوتية ، لذا ارتأينا تقسيم الأصوات الواردة في العينية إلى أصوات : مجهورة ، مهموسة ، انفجارية ، احتكاكية ، وهذا لمعرفة تكرار الأصوات ذات التأثير الأسلوبي الواضح .

فالأصوات المجهورة هي التي تهتز معها الأوتار الصوتية وهي : (ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن و ي ط ق) .

أما الأصوات المهموسة فهي التي لا تهتز معها الأوتار الصوتية ، وتتمثل في (ت ث ح خ س ش ص ف ك)¹⁰ ومن هذه الأصوات نستخلص أصوات أخرى : انفجارية و احتكاكية ، فالأصوات الانفجارية هي التي يحبس فيها مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسانا في موضع من المواضع ، وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة ، وهذه الأصوات هي (ب ت د ط ض ك ق ج أ) . أما الأصوات الاحتكاكية هي التي يضيق فيها مجرى الهواء فيحدث احتكاكا مسموعا ، وهذه الأصوات هي (ف ث ذ ظ س ز ص ش خ غ ع ه) ، وكل حرف من هذه الحروف له ظل و اشعاع¹¹ .

نوزع ورود الأصوات في عينية أبي ذؤيب (بثلاث أبيات) التي اخترناها نموذجاً كما يلي :

و الدهر ليس بمعتب من يجزع	أمن المنون و ريبها تتوجع
منذ ابتذلت و مثل مالك ينفع	قالت أميمة : ما لجسمك شاحباً
إلا أقض عليك ذاك المضجع ¹²	أمر ما لجنبك لا يلائم مضجعا

فحرف الميم مثلا كان له حضور في القصيدة، ومن ذلك (أمن، المنون، بمعتب، من، أميمته، ما لجسمك منذ، مثل مالك، أم ما... إلخ) ومثل ذلك مثل حرف العين والذي التزم به النظام الإيقاعي في القافية بحيث كان هناك إيقاع صوتي واحد و نمثل لذلك (تتوجع، يجزع، ينفع، مضجعا، مضجع، عليك... إلخ).

وحرف الفاء ورد في القصيدة مكررا في عدد من الأبيات ومثل ذلك: فأجبتها، فودعوا فتخرموا، فغبرت، فالعين، فكانها... إلخ) ، إضافة لذلك ورود حرف الشين في (شؤم ، شاقى المشرق ، بشوك ، جشء ، أجش) ، فحرف الشين المتكرر في هذا القول (جشء أجش) يحملان قيمة موسيقية التي تحدثها الجلبة المختلطة الناجمة عن اختلاط الأصوات المختلفة .

فورود حرف العين تكرر اقتضته القصيدة و هو من الحروف الحلقية ، وله ارتباط بالوضع النفسي الذي يعيشه الشاعر ، وهو وضع يشي بالأسى و الحزن .

إن الإحساس الذي يمكن أن يثيره هذا التكرار في نفس السامع هو ذلك الإحساس نفسه الذي كان الشاعر قد عاشه . و لذلك فإن وظيفة هذا التكرار تكمن في قدرته على خلق نغمة موسيقية ، لا يمكن أن يلغي انسجامها مع الموقف الذي عاشه الشاعر ، ولذلك لا يمكن أن يكون هذا التكرار هامشيا ، وإنما لابد أن يكون فاعلا ، فهذا التكرار يبرز الإنفعال العميق و الأنات و الزهفات التي كان ينفثها الشاعر لمقتل أبنائه ، لأن الصوت يمثل الإحساس ، ويجعل السامع يستشعر المعنى بطريقة مباشرة ، ولذلك فإن إلغاء ارتباط الصوت بالمعنى لا يمكن أن يكون صائبا ، كما أن مثل هذا الحكم لا يمكن أن يكون ثابتا .¹³

إن الموسيقى الكاملة للشعر لا تصدر عن مجرد الصوت بقيمته الصوتية المجردة ، بل تنشأ عن براعة الشاعر المجيد في التوحيد بين خصائص اللفظ الصوتية و بين ظلال معانيه و مثيرات عاطفته ، فتحليل أصوات الشعر يجب أن تراعي دائما الفكرة التي يحملها الشاعر و العاطفة التي يريد أداها .

لهذا نستخلص أنه ليست للحروف دلالات خاصة مطلقة كما يبدو ، ولكن يرتبط تكرار الحرف بإرادة الشاعر في توكيد المعنى الذي يريده ... فيكون دور الحرف تثبيت المعنى علاوة على قيمته النغمية فالحرف له أكثر من دلالة يكتسبها من السياق و ليست صفة طبيعية فيه ، ويمكننا القول أنه لابد للدارس أن يلتفت إلى ما يمكن أن يكون لتكرار الحرف من قيمة ما ، قد تكون دلالية محض في نص ما أو نغمية صرف في نص آخر أو الإثنين معا في نص ثالث .¹⁴

و يتضح في ضوء ما تقدم أن تكرار الحرف إنما هو مرآة عاكسة لإحساس الشاعر في قالب إيقاعي يحمل في طياته و موسيقاه تجربة شعورية مريرة عانها فأوردها في مركب شعري تتأثر به القلوب ، غير أن ظاهرة التكرار لا تنحصر في تكرار الشاعر للحروف فقط بل يتعدى الأمر إلى تكرار الكلمة .

2- تكرار الكلمة :

إن الكلمة تشكل "الركن الثاني مباشرة بعد الصوت في بناء النص الشعري"¹⁵، أو لنقل: إن الحروف في التحامها تشكل ظفيرة لفظية ناصعة ،ملأى بالمؤثرات الصوتية ذات الصبغة البلاغية، فالتكرار ما هو إلا تقانة معاصرة لعناصر الإبداع المتمثلة في الترصيع و التجنيس، في قالب فني أسلوبى جديد " يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية"¹⁶. ولصعوبة القيام بدراسة موسعة حول الأوجه المختلفة التي تظهر بها تكرارات الكلمات ارتأينا انتقاء ثلاثة أنماط من التكرار والوقوف عندها وهي تكرار الاشتقاق وتكرار المجاورة، و تكرار البداية .

1.2- تكرار الاشتقاق :

يتم هذا النوع بين الكلمات المشتقة من نفس الجذر اللغوي ، أي أنها ترجع إلى أصل معجمي واحد والاختلاف الذي يحصل بين الكلمات راجع إلى البنية الصرفية باعتبارها اشتقاقية و لقد وظف أبو ذؤيب تكرار الاشتقاق في عينيته ، وسنورد ذلك في الجدول الآتي :

الكلمة المكررة	رقم البيت الشعري
مضجعا - المضجع	
أودى - أودى	3
راغبة - رغبته	4 - 5
فجع - لمفجع	13
قرع - يقرع	14
جشء - أجش	29
هادية - هاد	30
جنبه - جنب	31
فكبا - يكبو	46
بنوافذ - كنوافذ	50
	64

فقد وظف الشاعر هذا التكرار - الاشتقاق - توظيفا ملحوظا في القصيدة ، و لم يرد هذا عضو الخاطر إنما يحمل إحساسا عميقا عمق النفسية الجاهلية المتفجعة و هذا التكرار ناشئ عن حالة شعورية شديدة التكثيف يبرز الشاعر تحتها ، و لا يملك لنفسه تحولا عنها و مثل هذا التكرار معروف في الشعر العربي القديم ، أي أن هذا التكرار يجيء في سياق شعوري كثيف يبلغ أحيانا درجة الأماسة¹⁷. ولقد جاءت جل الألفاظ وثيقة الارتباط بالظروف الاجتماعية والنفسية للشاعر .

2.2- تكرار المجاورة :

إن هذا النوع من التكرار قائم على التجاور بين الألفاظ المكررة ، وهذا التجاور يضفي على القصيدة موسيقى داخلية تبرز الإيقاع النفسي للشاعر¹⁸ وقد ورد ذلك عند أبي ذؤيب في قوله :

هصرعنه تحت الغبار وجنبه مترب و لكل جنب مصرع

فقد تجاوزت لفظة جنبه و جنب في البيت الشعري ، وفي قوله كذلك :

و نيممة من قانص متلبب في كفه جشء أجش و أقطع

فنكرنه ونفرن و مترست به عوجاء هاديّة و هاد جرشع

فشرين ثم سمعن حسا دونه شرف الحجاب وريب قرع يقرع

يتواجد تكرار المجاورة في " جشء ، أجش " و " هاديّة ، هاد " وفي " قرع ، يقرع " ، وهذا التكرار يهدف إلى التوكيد و التقرير للفكرة التي راودت الشاعر الجاهلي وأراد طرحها ، وليوصلها إلى المتلقي ، وقد انتقى الشاعر هذه الألفاظ المكررة لينقل تجربته المريرة بصدق ولكي يجعل تجربته تعاش مرة أخرى لدى الآخرين .

3.2- تكرار البدايات :

إن هذا اللون من التكرار شائع بصورة كبيرة في الشعر الجاهلي وهو أكثر ارتباطا ببناء القصيدة أو الأبيات التي يرد فيها ، وهو يكشف عن فاعلية قادرة على منح النص الشعري بناء متلاحما ، إذ أن كل تكرار من هذا النوع قادر على إبراز التسلسل والتتابع .¹⁹

فهذا التكرار يتصدر بدايات الأبيات من القصيدة و قد يأتي بكلمة أو كلمتين أو قد يمتد ليشمل شطرا من البيت الشعري ، وقد استخدم أبو ذؤيب هذا التكرار في عينيته حيث قال :

و كلاهما في كفه يزنيّة فيها سنان كالمنارة أصلع

و كلاهما متوشح ذا رونق غضبا إذا مس الضريبة يقطع

لقد استخدم الشاعر هنا أسلوب تكرار البدايات و اكتفى بتكرار كلمة " كلاهما " على صورة متسلسلة و متعاقبة ، وهذا التكرار لم يكشف عن إيقاع موسيقي ، لكنه يكشف عن الرابط بين الأبيات ، و يقول الشاعر أيضا :

و الدهر لا يبقى على حدثانه جون السراة له جدائد أربع

و الدهر لا يبقى على حدثانه شبب أفزته الكلاب مروع

و الدهر لا يبقى على حدثانه مستشعر حلق الحديد مقنع

إن هذا اللون من التكرار يخدم بالدرجة الأولى الترابط و التلاحم بين أجزاء القصيدة ، كما أنه يساعد على جعل القصيدة قادرة على تكوين تركيب

متناسق ، ومن خلال هذا يحس المرء أن القصيدة ذات وحدة متكاملة مترابطة ،
ليس من ناحية الموضوع وحسب وإنما من ناحية البناء أيضا .²⁰
إن هذه اللازمية والتمثلية في قول الشاعر : " و الدهر لا يبقى على حدثائه " ،
استطاعت أن تقدم ثلاث قصص مترابطة ومتلاحمة ، فالمرء لا يشعر فقط بأن
كل قصة قائمة بذاتها بل يشعر بأن هذه القصص الثلاثة مترابطة بعضها ببعض ،
وذلك من خلال استخدام الشاعر لهذه اللازمية التي تشكل ترديدا لذلك النغم
الجنائزي الحزين الذي لا يبرحه الشاعر حتى يعود إليه من جديد ، لأنه يعكس
إحساس الشاعر المأساوي ، فكل لازمة تشكل دائرة تظل تتحرك في إطار البؤرة
المركزية للقصيدة ، فما تخلص دائرة حتى تبدأ دائرة وهكذا ، حتى أن المرء
يحس أن القصيدة ربما تمتد إلى دوائر لا نهائية ، لكنها تدور حول مركزها وهذا
من شأنه أن يحفظ القصيدة من التشتت والانفلات ، لأنه يظل يعيد هذه الدوائر إلى
نقطتها المركزية .

إن وظيفة اللازمية لا يمكن أن تكون هامشية وإنما هي دخلت في صميم
تركيب النص الشعري ، إذ أنها قادرة على منحه بنية متكاملة متساوية ، فاللازمية
الرنانة المنتظمة عنصر مهم في بناء القصيدة فتكرار اللازمية استطاع أن يكون
بناء متماسكا متصلا ، مما أدى على تحويل الأداة الأسلوبية إلى أداة تركيبية.²¹
خلاصة القول إن ظاهرة التكرار لطالما تكررت في الشعر الجاهلي بكثافة
، فتكرار الشاعر لكلمة أو لكلمات أو لأنصاف أبيات أو لأبيات كاملة ، ما هو إلا
توكيد وإلحاح من هذا الشاعر على شيء ما ، وقد تكون ألوان من التكرار التي
وردت في الشعر الجاهلي مرتبطة بأجواء طقوسية معينة ، وبخاصة في شعر الرثاء ،
فالشاعر عندما كان يكثر من التكرار في شعر الرثاء كان يصور طقوسية
بكائية جنائزية و لذلك فإن صور التكرار قد عكست تلك النغمات المتنوعة
التي بلورت حسا جماعيا يتلاقى فيه موقف الشاعر مع موقف السامعين . فالتكرار
كان عبارة عن تلك ، النسج الصوتية التي تتظافر بعناصرها جميعا لتؤدي إلى
استبطان الدلالات التي قصد إليها الشاعر .²² وصور التكرار التي تناولناها بالتحليل
عكست الإيقاعات المختلفة التي بلورت حسا جماليا يلتقي فيه كل من الشاعر
والمتلقي ، وذلك في كون الأول مبدعا ، أو ساحر كلمات ، يريد تجسيد رؤيته
العينية في صور شعرية ، والثاني قارئاً يطمح إلى قراءة النص الشعري القديم قراءة
ثانية ، لاستنطاق دلالاته ، مخترقا بذلك حواجز كثيرة ، أو بنيات متعددة .

الهوامش:

1. شكري محمد عياد : اتجاهات البحث الأسلوبي ،أصدقاء الكتاب للنشر والتوزيع ،مصر، ط 2، 1996 ، ص 34 .
- 2 . وهب أحمد روميّة : شعرنا القديم والنقد الجديد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ع 207 1996 ، ص 141 .
- 3 . شكري محمد عياد : اتجاهات البحث الأسلوبي ،ص 85 ، 86 .
- 4 .موسى ربابعة : قراءات أسلوبيّة في الشعر الجاهلي ،مكتبة الكتاني - دار الكندي للنشر والتوزيع ،الأردن،(د ط) 2001 ، ص 23 .
- 5 . ابن منظور: لسان العرب، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ،لبنان ، ط4، 1994 .مج 5، ص135.
- 6 .ابن رشيق، العمدة:، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ، بيروت، لبنان، ط 5، 1981 ،ج 2، ص 73، 74.
- 7 .بيوري لوتمان:تحليل النص الشعري"بنيّة القصيدة" ت ،محمد فتوح، دار المعارف، بيروت1995، ص63.
- 8 .نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط6، 1981، ص276.
- 9 . مراد عبد الرحمن مبروك :من الصوت إلى النص ،"نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري"،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،الإسكندرية، مصر، ط 1 ، 2002، ص 21 .
- 10 . المرجع السابق ، ص 50 ، 51 .
- 11 . ممدوح عبد الرحمان : المؤثرات الإيقاعية (في لغة الشعر) ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،مصر،(د ط) ، 1994، ص 23 .
- 12 .أبو ذؤيب الهذلي، الديوان ، تحقيق،كرم البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان ، (د ت) .
- 13 . موسى ربابعة : قراءات أسلوبيّة ، ص 26 .
- 14 .طالب محمد الزويبي : البلاغة العربية ، البيان و البديع ، د/ ناصر حلاوي ، دار النهضة للطباعة و النشر بيروت ط 1 1996 ، ص 151 ، 152 .
- 15 . مراد عبد الرحمن مبروك :من الصوت إلى النص ،ص 73 .
- 16 .نازك الملائكة :قضايا الشعر المعاصر، ص 263 .
- 17.فهد ناصر عاشور : التكرار في شعر محمود درويش ، ط 1 2004 ، ص 46 .
- 18 .محمد عبد المطلب : البلاغة و الأسلوبية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ، القاهرة ، ط 1 1994 ، ص 301 .

19 . موسى ربابعة : قراءات أسلوبية ، ص 46 .

20 . موسى ربابعة : المرجع السابق ، ص 63 . هذا التكرار تعدى إلى التركيب وصار في مفهوم المحدثين ما يسمى بالتوازي، وهو في هذا المثال تام جرى على صدر الأبيات، وقد يكون له مكان غير هذا، يختص بالحديث عنه دون تكرار الحروف والكلمات.

21 . ابن رشيق : العمدة ، ص 63 .

22 . ممدوح عبد الرحمن : المؤثرات الإيقاعية ، ص 108 .